الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزراة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (ف1+ف2+ف3)

الحصة التطبيقية الخامسة:

دراسة تطبيقية في رسالة الغفران للمعري

الحصة التطبيقية 05

دراسة تطبيقية في رسالة الغفران للمعري

تمهيد:

تعد (رسالة الغفران) - ببعدها الحكائي الخارق والعجائبي - من النصوص النثرية الّتي تمد قارئها بدلالات وتفتح أمامه أبوابا من التأويل لا تنتهي، لذلك مازال الشغف بها قائما إلى يومنا هذا: شغف بالقص في حد ذاته، وبالعجائبي الّذي حفلت به الحكاية، وبالآليات الّتي انتخبها المعري لإمتاع العقول والقلوب، ومنها الوصف...إلخ.

أولا- الوظيفة السردية للوصف

الوصف هو حركة سردية تضخم الخطاب، وتعلق الحكاية، وتساهم في تسيير ونموها[1]. وفي نص المعري تظهر الصور ومعها الأحداث استجابة لشخصية البطل ابن القارح، إذ يظهر الوصف لغاية سردية على لسانه معلنا بداية الحكي: «لما نهضت أنتفض من الريم، وحضرت حرصات القيامة ... فطال علي الأمد، واشتد الظمأ والومد، ... وأنا رجل مهياف...، فافتكرت، فرأيت أمرا لا قوام لمثلي به. ولقيني الملك الحفيظ بما زبر من فعل الخير، وجدت حسناتي قليلة كالنُّفَإ في العام الأرمل...إلا أنّ التوبة في آخرها كأنّها مصباح أبيل، رفع لسانك السبيل، فلما أقمت في الموقف زهاء شهر أو شهرين، وخفت في العرق من الغرق، زينت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتا في رضوان خازن الجنان...»[2].

هذه المقاطع السردية محملة بجملة من الأفعال الوصفية، فاختيار الكاتب للفعل (نهضت) بدلا عن قمت مثلا، لا يمكن أن يكون اعتباطيا إذا اعتبرناه دالا على القيام بعد حالة نوم، ومثله الفعل (حضرت) وكان بإمكان المعري توظيف الفعل (شاهدت) أو (رأيت) وغيرهما، لكنه أراد بفعل الحضور تصوير البطل في حالة يقظة واستعداد. وكذلك الفعل (وجدت) وكان بالإمكان تعويضه بالفعل (اكتشفت) أو (أدركت) أو (عرفت)، ولكن يبدو أن الفعل المرتبط بالوجود أكثر دلالة على مثل هذا الموقف الذي سيقرر مصير البطل بما يحمله من دلالات ستعبر عنها مجموعة الجمل الفعلية التي تتبعه خاصة: خفت / زينت لي النفس، فاختيار الجملة الفعلية ذات البعد الوصفي لحالة ابن القارح، (وجدت حسناتي قليلة)، فتحت باب السرد لأنّ قصته ستبدأ من هذا الشعور، إذ ينطلق باحثا لنفسه عن مصير يتحقق فيه وجوده، ومعه ينطلق

[1] محمد نجيب العمامي، الوصف بين النظرية والنص السردي، صفاقس، تونس، ط1، 2015م، ص 190

[2] أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، حققها وشرحها محمد عزت نصر الله، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنا، 25 حزيران يونيو 1968م، ص 91

موضوع السرد في الرسالة وهو عالم الآخرة، حيث يتكرر ضمير المتكلم الدال على الحميمية السردية، إذ يخيل للقارئ أنّه هو من يصنع الحدث وليس المعري كما زاد ابن القارح ارتباطا بالرحلة. ومن النماذج قوله:« والحلولية قريبة من مذهب التناسخ، وحدثت عن رجل من رؤساء المنجّمين من أهل حرّان أقام في بلدنا زمانا، فخرج مرة مع قوم يتنزهون فمروا بثور يكرب، فقال لأصحابه: لا أشك في أنّ هذا الثور رجل كان يعرف بخلف بحرّان، وجعل يصيح به: يا خلف، فيتفق أن يخور ذلك الثور، فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى صحة ما خبرتكم به»[1] .وقوله على لسان أحد الجن: «ولقد لقيت من بني آدم شرا، ولقوا مني كذلك، دخلت مرة دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم، فتصورت في صورة عضل (أي جرد) فدعوا لي الضياون، فلما أرهقتني تحولت صلا أرقم ودخلت في قيطل هناك، فلما علموا ذلك كشفوه عني، فلمّا خفت القتل صرت ريحا هفّافة فلحقت بالروافد ونقضوا تلك الخشب والأجذال فلم يروا شيئا، فجعلوا يتفكنون ويقولون: ليس هاهنا مكان يمكن أن يستتر فيه. فبينما هم يتذاكرون عمدت لكعابهم في الكلّة، فلما رأتني أصابها الصرع، واجتمع أهلها من كلّ أوب، وجمعوا لها الرقاة وجاؤوا بالأطبة وبذلوا المنفقات فما ترك راق رقية إلاّ عرضها عليّ وأنا لا أجيب، وغبرت الأساة تسقيها الأسقية وأنا سدك بها لا أزول فلما أصابها الحمام طلبتُ لي سواها صاحبة، ثم كذلك حتى رزق الله الإنابة وأثاب الجزيل، فلا أفتأ له من الحامدين»[2].

وهذا النمط من الوصف على علاقة بالطابع العجائبي الذي يلف النص بخصائصه الزمانية والمكانية[3] فكرة، وعرضا، تؤكدها وتؤديها مقاطع لغوية تحمل دلالات المفارقة والاختلاف مثل: تصورت / تحولت صرت، إذ يبدأ الوصف بدخول الحية الدار وتمكنها من الفتاة، من هنا تتضح رمزية الحية الّتي تتميز بالتلون والتخفي والتحول واقترانها بالفتاة، ويمكن أن يكون بغاية التسوية دلاليا بينهما، فالفتاة وهي مشروع امرأة، ستكون من أوصافها التحول والتبدل، فإن قرنا هذا التأويل بما عرف عن المعري من عزوف عن النساء، كنا أمام مقطع دال على اختيار واع للمشهد للتعبير عن ذاته مرة في تعامله النساء وموقفه منهن، وعن ابن القارح مرة أخرى، ساخرا منه لما عرف عنه من تبدل وتلون خدمة للمصلحة الخاصة من هنا تتضح رمزية الحية ورمزية الفتاة، كما تشير محاولات الأهل للشفاء عبر الرقاة وقبلها

[1] أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، مصدر سابق، ص 238
[2] المصدر نفسه، ص 123-124
[3] نبيل حمدي الشاهد، العجائبي في السرد العربي القديم، مئة ليلة وليلة والحكايات العجيبة والأخبار الغريبة نموذجا، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2012م، ص 281

التفتيش عن الحية في أماكن مختلفة دون العثور عليها، إلى التفتيش عن الحقيقة والسعي للشفاء من شقاء الحياة دون جدوى. فالوصف هنا يعمق دلالة الرسالة أكثر مما يقدم مشهدا وحدثا مرّ به ابن القارح أو يصف شخصية من الشخصيات، وكأنا بالمعري يضع يديه على أهم ما يميز الوصف جماليا باعتباره تقنية أسلوبية غايتها تأنيق النسيج النصي وتعميقه، فالجنة الّتي يصفها ليست في علم الإنسان، لأنّ خبرها عند الله والمصير كذلك، لكنه اختارها فضاء سرديا عرّف فيه بشخصياته وأطّر بها صورة الحدث وزمنه مسترجعا التصور الذهني الكامن في عقول المسلمين عن مظاهر الآخرة في قالب ساخر أخفى النقد اللاذع، وتلك تقنية لا يتقنها إلاّ من يمتلك تفكيرا عميقا يعبث بالأشياء، ليعيد توجيه التفكير وزاوية النظر.

خاتمة

وظف المعري الوصف بأبعاده الجمالية والشكلية لنقل الصور والأوضاع والأحوال والمواقف الّتي مر بها ابن القارح وشخصيات الرسالة، مسلطا به الضوء على المواقف والأحوال والملامح والانفعالات. ويبقى نص المعري (الغفران) علامة مميزة في مؤلفاته وفي المؤلفات الّتي ظهرت في عصره، لذلك يحتاج مزيدا من القراءات لإضاءة جميع جوانبه وكشف خباياه، بما يعطي صورة واضحة عن التأليف النثري عند العرب القدامى.